المبحث الثّاني

تطوّر تدوين الحديث الشريف

مرّت كتابة الحديث الشريف وتدوينه في طريقه إلينا بعدّة مراحل ساعدت على تخليصه من الشّوائب ونستطيع أن نحصر هذه المراحل في أربع مراحل هي:

المرحلة الأولى: الحفظ في الصّدور: واستمرّت هذه المرحلة في الصّدر الأوّل من الإسلام ، أي: في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الرّاشدين ومطلع الخلافة الأمويّة، ويرجع الاعتماد في حفظ السنّة النبويّة على حفظ الصّدر في هذه المرحلة في لعدّة أسباب هي:

السّبب الأوّل: أنّ الأمّة العربيّة التي وجد فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ـ وكان واحدًا منها ـ أمّة أمّيّة لا تحسن القراءة ولا الكتابة إلّا النزر اليسير منهم، وقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بذلك، فقال عزّ وجلّ من قائل: (هُوَالَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [الجمعة: ٢] وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: « إنّا أمّة أميّة، لا نكتب ولا نحسُبُ.....»

لكنّها إلى جانب ذلك كانت مضْرِب المثل في الذّكاء وصفاء الطّبع وقوّة الذّاكرة وسرعة الحفظ ، وإنّنا لنجد ذلك في حفظ العرب لأنسابهم وشعرهم وتواريخ وقائعهم وأيّامهم مع الإحاطة والدّقّة.

السّبب الثّاني: عدم توفّر وسائل الكتابة عند من يستطيع الكتابة منهم، فقد كانوا يكتبون على ما يتوفّر لديهم من حجارة صالحة لذلك، أو عظام، أو سعف نخل، أو جلود ماشية، وقليلًا ما كانت تتوفر لديهم.

السّبب الثّالث: انشغالهم بكتابة القرآن الكريم وعنايتهم به وانصرافهم إليه دون ما عداه، وهذا السّبب له ارتباط بالسّبب الثّاني .

السّبب الرّابع: ما ورد من نهي النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن كتابة أيّ شيءٍ غير القرآن مخافة أن يلتبس بالقرآن الكريم، فقد قال صلّى الله عليه وسلم: «ولا تكتبو عنّي، ومن كتب عنّي غير القرآن فليمْحُهُ»

اللّهم إلّا ما أَذِن به صلّى الله عليه وسلّم لعبد الله بنِ عمروِ بنِ العاصِ رضي الله عنهما، فقد قال عبد الله: كنت أكتب كلَّ شيءٍ أسمعُهُ من رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم أريدُ حِفظَه، فنهتْني قريش، وقالُو: أتكتب كلَّ شيءٍ تسمعُهُ ورسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم بشرٌ يتكلّمُ في الغضبِ والرِّضا؟، فأمسكْتُ عن الكتاب، فذكرْتُ ذلكَ لرسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم فأومأَ بأُصْبُعِهِ إلى فِيه، فقال:«اكتب، فوالّذي نفسيٌ بيدِه، ما يخرجُ منهُ إلّا حقّ». إضافَة إلى ما كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وما كتبه من عهودٍ ومواثيق.....وغير ذلك.

المرحلة الثّانية ـ مرحلة التّدوين: وهي مرحلة تدوين الحديث وكتابته مخافة الاندراس والضّياع، وخشية الاختلاط بغيره، أو الوضع والدسّ فيه، ففي رأس المئة من الهجرة رأى خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز (ت : ١٠١ هـ) رحمه الله أن يحمل العلماء على أن يدوّنو الحديث، فكتب إلى أمرائه على الأمصار الإسلاميّة يأمرهم بذلك، فكتب إلى واليه على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم (ت: ١٢٠ هـ):« انظر ما كان من حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاكتبه، فإنّي خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلّا حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم». وكذلك كتب إلى سائر ولاة الأمصار.

وقد امتثل الولاة والعلماء هذا الأمر، فكان ممن بادر إلى الكتابة الإمام ابن شهاب الزّهريّ (ت : ١٢٤ هـ) عالم الحجاز والشّام، وكذلك فعل أبوبكر بن حزم وغيره، ولكن المنيّة عاجلت أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز قبل أنْ يجتمعَ لديه نتاج ما قام به هؤلاء العلماء الأفذاذ.

وقد نهج العلماء في ظلّ الخلافة العبّاسيّة ـ في القرن الثّاني الهجريّ ـ نهج سيدنا عمر بن عبد العزيز في تدوين الحديث، وازدادت العناية والاهتمام به في هذا القرن، كما شجّع الخلفاء العلماء على التقصّي والجمع ، فقد طلب أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العبّاس من الإمام مالك بن أنس (ت : ١٧٩ هـ) إمام أهل المدينة أن يجمع كتابًا في الحديث، فدوّن الإمام مالك كتابه «الموطّأ» في مقبول الحديث وصحيحه . وامتاز التدوين في هذه المرحلة بالجمع والمزج بين السنن والأحاديث المرفوعة للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبين أقوال الصّحابة وفتاوى التّابعين وأقاويلهم.

ومن كتب هذه المرحلة الّتي وصلتنا سوى «الموطّأ» للإمام مالك:

ـ المصنّف: لأبي بكر عبد الرّزاق بن همّام الصنعانيّ (ت: ٢١١ هـ)

ـ المصنّف لأبي بكر عبد الله بن محمّد بن أبي شيبة العبسيّ (ت: ٢٣٥ هـ)

وهذه الكتب مرتّبة على الأبواب

المرحلة الثّالثة ـ مرحلة تّجريد الحديث النبوي:

وفي هذه المرحلة قام العلماء الحفّاظ بتدوين الأحاديث النبويّة فقط، وذلك بتخليصها ممّا كان ممتزجًا بها من آثار الصحابة وفتاوى التابعين، وهذه المرحلة ترجع إلى القرن الثالث والقرن الرابع الهجريّين، وقد شاع في هذه المرحلة تدوين الحديث على طريقة المسانيدِ ـجمع أحاديث كلُّ صحابيٍّ على حدة ـ ومن أشهر من صنَّف على هذه الطريقةِ:

ـ الإمام أبو عبدِالله أحمد بن محمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ).

ـ أبو يعقوب إسحاق بن زاهوٌيَه التميميّ المروزيّ (ت: ٢٣٨ هـ).

كما ظهرت في هذه المرحلة الأصول السّتة التي عليها التعويلُ عند جمهورِ المسلمينَ وهي صحيحُ البخاري، وصحيحُ مسلم، والسُّنَنُ لأبي داود، والجامع للترمذيّ، والسُّنَنُ للنسائيّ، والسُّنَنُ لابن ماجة.

ولم يكُد القرن الرابع الهجريُ ينتهي حتى أُحصيَت مُتون الأحاديث النبويَّةِ واستوعبت أسانيدهُ في مجموعِ المصنَّفاتِ الحديثيَّةِ ولم يفُتها إلّا ما شذَّ ونذرَ.

المرحلة الرّابعة ـ مرحلة الترتيب والتهذيب:

وقد ابتدأت هذه المرحلة مع أواخر القرن الرابع الهجري، وهي مستمرَّةٌ إلى يومنا هذا، فكان كلُّ جيل من أئِمة المسلمينَ يقوم بترتيب تلك السُّنَنِ وتنسيقها، وتهذيبها وشرحها، وتنميقها في مؤلفاتٍ استلهموها من خلال حاجةِ تلك العصورِ فيما يُعنَونَ ويُبَوِّبونَ ويجمعونَ ويُفَرِّقون.

ومن ألوانِ التَّصنيف التي ظهرت في هذه المرحلةِ.

ـ الجمع بين عددٍ من كتب المتقدِّمينَ مع شيءٍ من التَّصرفِ والاختصارِ والترتيبِ على الأبوابِ، مثلَ كتاب «جامع الأصول» لأبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزريّ (ت: ٦٠٦ هـ) الذي جمعَ بين الأصولِ السِّتَةِ: البخاري، ومسلِم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وموطَأ مالِك.

ـ كتبٌ جمعت الأحاديث في مواضيع مفردةٍ، مثل:

كتاب «الترغيب والترهيب» للإمام عبدالعظيمِ المنذريّ (ت: ٦٥٦ هـ).